

كتب بالعربية

حركة القوميين العرب:

نشأتها وتطورها عبر وثائقها ١٩٥١-١٩٦٨

الكتاب الأول، ١٩٥١-١٩٦١

الجزء الأول

تحرير: هاني الهندي، عبد الإله النصراوي

بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠١. ٥٥١ صفحة.

حركة القوميين العرب تجربة انطلقت سريعاً، وتلاشت سريعاً، مع أن تجلياتها لا تزال قائمة معنا حتى اليوم. حركة بدأت في مطلع الخمسينات، واعتبرها الكثيرون رداً متصلاً مباشراً على النكبة الفلسطينية سنة ١٩٤٨. انتشرت في أكثر من بلد عربي، وتخاصمت مع حزب البعث، وتعاركت مع الأحزاب الشيوعية، وتحالفت مع عبد الناصر والحركة الناصرية، ثم تعرضت للانشقاق وتناثرت تنظيمات قطرية في تسع دول عربية (١٩٦٨ . ١٩٦٩)، وعاشت واستمرت بعد ذلك في أشكال أخرى تكاد تنكر ماضيها ومنبتها. وصلت أحياناً إلى تخوم السلطة (العراق)، لكن السلطة ضاعت منها وتسلمها خصومها. وحكمت أحياناً حكماً مباشراً (اليمن الديمقراطية)، لكن الحاكمين الطالعين من تراثها وتنظيماتها كانوا يتبرأون منها باعتبارها حركة قومية يمينية وهم تطوروا إلى ماركسيين لينينيين ثوريين.

وبعد أن تعرضت للانشقاق، في كل بلد وجدت فيه تقريباً، اختصرت نفسها في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فبقيت حية من خلال تلك الجبهة، وصعدت وهبطت مع صعود العمل الفدائي وهبوطه، وبقيت حتى في هذه المرحلة عرضة للانشقاقات، أحياناً بالإكراه (المنظمة الثورية لتحرير فلسطين) وأحياناً بالتوافق والرضا (تنظيم وديع حداد).

وتميزت، في هذه المراحل، بأن لها وجوداً نضالياً وتنظيماً من نوع مختلف عن الآخرين، تحظى أحياناً بالكره الشديد، وأحياناً أخرى بمحبة الكثيرين واحترامهم، حتى أن تنظيماً فعالاً يتكون وينطلق داخل فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨ (حركة أبناء البلد) ويعتبر نفسه امتداداً لها، من دون أن تكون له علاقة شخصية أو تنظيمية بالجبهة. إنه تأثيرها النضالي والمعنوي يدفع بمجموعة من الشباب للاقتداء بها. أما بين فصائل العمل الفدائي فقد وجدت عدة فصائل كان قاداتها أعضاء في حركة القوميين العرب. وحين أسسوا فصائلهم المستقلة (جبهة النضال الشعبي)، حافظوا على مسافة من علاقة الود والاحترام للحركة الأم.

ومع أن الحركات السياسية لا تقوم على الأفراد، فإن دور الأفراد لا يمكن إنكاره، لا في التاريخ ولا في الفكر ولا في العمل السياسي أو النضالي. وعلى أساس هذه القاعدة يرد اسم الدكتور جورج حبش، لا كواحد من أبرز مؤسسي الحركة فحسب، ولا كأمين عام للجبهة الشعبية لأعوام مديدة فحسب، بل أيضاً لصفات شخصية ونضالية توفرت له، وجعلته دائماً واسطة العقد في كل عمل ينخرط فيه. كان الناس يحبونه ويحترمونه، وكانوا يقبلون على الانضمام إلى الحركة متأثراً به. وحين تأسست الجبهة الشعبية (سنة ١٩٦٧) أعطاهما من اسمه الكثير، ووفر لها عنصر الإرادة والاستمرارية، وكان الكثيرون يعادونه، أو يتخاصمون معه، لكنهم يحبونه ويحترمونه. وبفعل هذه الصفات استطاع حبش أن يواجه الانشقاقات، فإزاء كل

انشقاق تكون الحركة حيث يكون جورج حبش، وتكون الجبهة الشعبية حيث يكون جورج حبش. وجورج حبش الآن، وبعد أن تخطى طوعاً عن الأمانة العامة للجبهة الشعبية، وكان أول أمين عام فلسطيني يفعل ذلك، يحتل في أوساط الجماهير الفلسطينية مكانة الرمز، ويمثل صفات الضمير الحي، ويقتدي البعض به كنموذج للإرادة النضالية التي يحتاج إليها العمل الثوري في الأوقات الصعبة.

حركة القوميين العرب هذه، والتي تناسخت وعاشت عبر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، لم تحظ بالتأريخ اللازم لتجربتها، ولم تحظ بالتحليل والتقويم الذي يحفظ لها مكانتها. لقد تم التحليل الجزئي لتجربتها من خلال النقد الذي رافق عمليات الانشقاق، وكان بالتالي نقداً يركز على تبرير عمل المنشقين، وهو تبرير يحتاج إلى تهديم سمعة الطرف الآخر. وفي المكتبة العربية كتابان يحكيان عن حركة القوميين العرب وتجربتها: كتاب باسل الكبيسي (عراقي اغتالته إسرائيل في باريس) الذي انشغل بوصف بنية الحركة الداخلية والتنظيمية، ربما لأنه أُعد في الأصل كرسالة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه؛ وكتاب محمد جمال باروت (سوري)، الذي انشغل بتتبع دور الحركة السياسي في أكثر من بلد عربي، معتمداً على رواية عدد محدود من كوادر الحركة (المنشقين عنها)، فجاءت روايته مبتسرة وناقصة ومغلوطاً فيها أحياناً، حين يتعلق الأمر بتاريخ الحركة وأوضاع نشأتها، ودور الأشخاص في بنائها. وإذا كان باسل الكبيسي معاشياً لأوضاع نشأة الحركة الأولى، فإنه لم يقع في أخطاء تحرف العمل عن غايته. أمّا محمد جمال باروت فينتهي إلى جيل لاحق لم يعايش تجربة العمل السياسي بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٦٨، فسعى إلى المعلومات عن طريق القراءة أو عن طريق الاستماع إلى تطورات التجربة من عدد محدود من الأشخاص يمثل وجهة نظر واحدة في موضوع تتعدد في شأنه الآراء. ولذلك جاء عمله ناقصاً، وأحياناً مغلوطاً فيه، على الرغم من أن كتابه لا يكشف إلا عن نيات طيبة.

ودخل المكتبة العربية منذ أسابيع قليلة كتاب جديد عن حركة القوميين العرب، هو هذا الكتاب الذي نحن في صدده، من تحرير هاني الهندي (سوري) وعبد الإله النصراوي (عراقي). ونستطيع أن نقول إن هذا الكتاب يغطي نقص الموضوعات الذي طبع كتاب الكبيسي، ويكمل نقص المعلومات الذي طبع كتاب باروت، وهو يشكل بالتالي إضافة نوعية إلى تأريخ حركة القوميين العرب منذ نشأتها حتى انشقاقها (١٩٥١. ١٩٦٨)، وخصوصاً أن المحررين مؤهلان لأداء هذه المهمة. فهاني الهندي هو أحد مؤسسي الحركة مع جورج حبش، وله تجربته السياسية الكثيفة في العمل الحزبي والوطني داخل سورية، كما له تجربته السياسية الكثيفة في بلاد عربية أخرى (العراق، مصر) بحكم موقعه القيادي في الأمانة العامة للحركة، حيث تم انتدابه أكثر من مرة للقيام بأدوار سياسية حساسة (الحوار مع قيادة الرئيس جمال عبد الناصر، تمثيل حركة القوميين العرب كوزير للتخطيط في الحكومة الأولى التي تلت القضاء على حكم الانفصال في سورية). أمّا عبد الإله النصراوي فهو من كوادر الحركة الأولى في العراق، وكان له دور قيادي بارز في فترة حكم الرئيس عبد السلام عارف، وقد عايش العمل السري كما عايش العمل العلني، وكان في فترات كثيرة قريباً من موقع القرار في السلطة الحاكمة في العراق، مشاركاً في المشورة السياسية وفي توجيه الأحداث. ولا شك في أن هذه الصفات تؤهل المؤلفين (المحررين) لكتابة تاريخ الحركة من موقع العارف بالوقائع والتفصيلات والمؤتمرات والتحالفات والأسماء، وليس استناداً إلى مراجع منشورة فحسب، أو إلى ذكريات يرويها أشخاص فقط، على الرغم من أنهما ملمان بكل ما نشر، وكانت لهما اتصالاتهما لتأكيد الوقائع التي يعرفانها، أو إكمالها.

وهناك ميزات أخرى في الكتاب تتعلق بمضمونه. فهو يسرد، من دون تطويل أو إيجاز، الملامح الأساسية في تطور النشاط السياسي والعمل للحركة القومية العربية

الحديثة منذ أواخر العهد العثماني حتى نكبة فلسطين، مبيناً التنظيمات التي تأسست والأفكار التي كانت تعبر عنه. ويظهر من خلال هذا السرد، كيف تفاعل الأفراد الذين أسسوا الحركة، فيما بعد، مع تأثيرات تلك التنظيمات وأفكارها، ليتبلور بوضوح من خلال ذلك أن حركة القوميين العرب إنما كانت امتداداً مباشراً لحركة القومية العربية، تأثرت بذلك التراث، وحاولت تجديده، وعبرت عن استمراريته، ولم تكن نبتاً برياً ظهر فجأة كردة فعل على نكبة فلسطين كما شاع لدى الكثيرين في فهم الحركة وتحليل أسباب نشوئها. ولا شك في أن نكبة فلسطين كانت عاملاً محركاً، وكانت حافزاً على العمل، لكن العوامل الأعمق كانت كامنة في نسيج الحركات التي انتشرت في كل قطر عربي تبحث عن دور عربي في وجه حركة التتريك، وتبحث عن دولة عربية في وجه الحركة الاستعمارية الغربية ونزوعها إلى تجزئة المنطقة.

وفي سياق سرد هذه المسيرة، قدم المؤلفان معلومات جديدة وموثقة عن تنظيمات فعالة ومؤثرة، لم تحظ حتى الآن بالدراسة العلمية الوافية. وتمثل ذلك في المعلومات عن حركتين هما:

حركة "جمعية التحرير العربية" (١٩٢٩) التي أسسها فريد زين الدين (لبنان) ودرويش المقدادي (فلسطين) ونافع شلبي (سورية)، والتي تطورت فيما بعد واشتهرت باسم جماعة "الكتاب الأحمر"، وترأسها قسطنطين زريق سنة ١٩٣٧. ويروي المؤلفان تفصيلات كثيرة عن نشاط هذا التنظيم وعن المنتسبين إليه في كل قطر عربي. وهي معلومات يجري تقديمها لأول مرة، وتكشف عن جهد مكثف ودؤوب لجمع الحقائق والمعلومات ممن يعرفها، وهي جديرة بأن يعكف عليها المؤرخون لإعادة درسها وتقويمها وتحليلها وتبيان دور الحركة النضالي والسياسي. وحين يتم إيراد هذه المعلومات عن هذا التنظيم وتفاعلاته في البلاد العربية، تنكشف بالوقائع تأثيرات هذا التنظيم في شباب الجيل الجديد، جيل الأربعينات، الذي كان منه أشخاص مثل

جورج حبش (فلسطين)، وهاني الهندي (سورية)، وأحمد الخطيب (الكويت)، وأسسوا حركة القوميين العرب، كوليد، وكامتداد طبيعي لتلك الحركة، التي كانت هي بدورها امتداداً للحركات التي سبقتها.

الحركة الثانية التي قدم المؤلفان معلومات دقيقة عنها، هي "كتائب الفداء العربي"، وهي حركة سرية نشطت في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، وقامت بعمليات اغتيال لشخصيات غربية وعربية في دمشق، وعمليات نسف لمراكز يهودية في لبنان. ولقد بين المؤلفان كيف تشكل هذا التنظيم من تلاقي مجموعات فلسطينية وسورية ومصرية، وقدما وثيقة مهمة (وثيقة المحكمة) تغطي لهذا التنظيم ما له وما عليه، وتضع تأثيراته في تأسيس حركة القوميين العرب في حجمها الصحيح، بعد أن راج لدى البعض القول إن نشأة حركة القوميين العرب هي نشأة إرهابية، بسبب علاقة بعض مؤسسي الحركة بهذا التنظيم قبل تلاشيها.

لقد قام المؤلفان بعملية سرد موثق بالأسماء لنشأة حركة القوميين العرب، واتساعها من قطر إلى قطر، ذاكرين أسماء كثيرين من المناضلين المعروفين وغير المعروفين، وجلهم لا يزال حياً حتى الآن، بحيث يصح القول إن عملية السرد الدقيقة هذه تقدم ركيزة للباحثين والمؤرخين كي يعرفوا مواقع أقدامهم حين يسعون لكتابة تأريخ جديد للحركة، أو للمسيرة السياسية في البلاد العربية.

وفي نطاق تحديد خطوات النشأة الأولى للحركة، يقدم المؤلفان معلومات دقيقة ليست معروفة إلا على نطاق محدود، ولا أذكر أن أحداً تحدث أو كتب عنها من قبل، تسجل أن نواة التنظيم الأولى لحركة القوميين العرب تكونت من كتلتين: الكتلة التي كانت ملتفة حول الدكتور جورج حبش في الجامعة الأميركية في بيروت (وهذه واقعة شائعة ومعروفة)، والكتلة المنظمة التي كان يقودها في المدرسة الأميركية الثانوية التابعة للجامعة كل من ثابت المهاني (سوري) وعدنان فرج (فلسطيني)،

توفي مؤخراً في عمان)، (وهذه واقعة غير معروفة)، وقد كان عدد أعضاء تنظيم الطلاب الثانويين يفوق جداً عدد أعضاء تنظيم الطلاب الجامعيين. أخيراً، لا بد من وقفة أمام وثائق هذا الكتاب، وهو جزء أول ستليه أجزاء. فهذه الوثائق توضع من جديد أمام الباحثين والمؤرخين، وهي تشكل دعماً لعملية البحث ووجهات النظر المضمرة في البحث، لكنها تشكل من جهة أخرى المادة الخام التي تتيح للباحث أو المؤرخ أن يقدم قراءته الخاصة للوقائع والأحداث، مستنداً إلى نصوص ووثائق كاملة، لا إلى استشهادات مقتطفة من هنا وهناك فقط. إن عملية التوثيق هذه تمثل جهداً لا يقل قيمة عن عملية البحث والتأليف والتحليل التي يتضمنها الكتاب، وهي خدمة وطنية ونضالية بمقدار ما هي خدمة بحثية وتاريخية وسياسية.

لقد نأى المؤلفان عمداً عن القيام بأي عملية نقد جارحة، أو عملية تقويم قاسية، للكثير من الأحداث والمواقف السياسية التي عرضا لها. فسجلا أنهما كتبا "من دون تضخيم للذات أو نقد للآخرين" (ص ٢٠). لكن عملية التأريخ والتوثيق للحركة تستدعي وتستحق القيام بعملية نقد وتقويم، تغني التجربة السياسية العربية، وتغني الفكر السياسي العربي، فتجارب عمل الحركة في سورية والأردن والعراق واليمن تستحق نقداً وتقويماً؛ وعلاقة الحركة بعبد الناصر وبالتجربة الناصرية تستحق نقداً وتقويماً؛ وتجربة الانشقاق، وخصوصاً انشقاق الجبهة الديمقراطية، تستحق نقداً وتقويماً، لما رافقها من جدل سياسي وفكري كانت له تأثيراته في الساحتين الفلسطينية والعربية.

كما أن عملاً تاريخياً من هذا النوع يحتاج إلى فهرسة تكمل نهجه العلمي،
وتسهل على الدارسين الاستفادة من مواده. ونأمل بأن يتم ذلك في الجزء الثاني من
الكتاب.

بلال الحسن

كاتب وصحافي فلسطيني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>